

وليس بعد مكة مكان أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأعمال فيها مضاعفة، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام... وكذلك قيل: إن فضل الأعمال بالمدينة كفضل الصلاة، كل عمل بالكف عمل. وبعد ذلك الأرض المقدسة فإن فضل الصلاة فيها بخمسائة صلاة، وكل عمل يضاعف بخمسائة مثله... وروينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة.. وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بالكف صلاة، ثم يستوى الأرض بعد ذلك فلا يتبقى منسوب إليه مقصود لفضل دلّ الشرع عليه، كما جاء في الخبر: لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى، وبعد ذلك فأي موضع صلح فيه قلبك، وسلم لك دينك، واستقام فيه حالك فهو أفضل المواضع لك.

وقد جاء في الخبر: البلاد بلاد الله تعالى، والخلق عباده، فأي موضع رأيت فيه رفيقا فاتم وأحمد الله تعالى... وفي الخبر المشهور: من حضر له في شيء فلزمه، ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه... وقال نعيم: رأيت الثوري قد جعل جرابه على كتفه وأخذ قلته بيده، فقلت إلى أين يا أبا عبد الله، فقال إلى بلد أملا فيه جرابي بدرهم.. وفي حكاية أخرى: بلغني أن قرية فيها رخص فأخرج إليها. فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال نعم، إذا سمعت في بلد برخص فاقصده، فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك... وكان يقول: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين! هذا زمان تنقل الرجل، ينتقل من قرية إلى قرية يفرُّ بدينه من الفتن... وقد كان الفقراء والمريدون يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين للنظر إليهم والتائب بهم. وكان العلماء ينتقلون في البلاد ليعلموا ويردوا الخلق إلى الله تعالى ويعرفوا الطريق إليه، فإذا فقد العاملون وعدم المريدون فالزم موضعاً ترى فيه أدنى سلامة دين، وأقرب صلاح قلب، وأيسر نفس، ولا تنزعج إلى غيره فإنك لا تأمن أن تقع في شر منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه، والله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

## الفصل الرابع والثلاثون

في تفضيل الإسلام والإيمان وشرح عقود معاملة القلب من

مذاهب أهل الجماعة

قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود بوقال سبحانه وتعالى: ولكن

يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان. وقال تعالى : ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم. وقال جل ثناؤه : ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ... فعمدُ القلوب وكسبُها هو عقودها وأعمالها وعقود القلب التي هي السنّة المجتمع عليها، نقلها الخلف عن السلف ولم يختلف فيها اثنان من المؤمنين، فيها ست عشرة خصلة - ثمان واجبات في الدنيا، وثمان واقعات في الآخرة - فأما اللاتي هن في الدنيا: \* أن يعتقد العبد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل: \* وأن القرآن كلام الله عز وجلّ غير مخلوق، وعلمه القديم صفة من صفاته، هو متكلم به بذاته. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقرّب العبد إلى الله عز وجلّ بأفضل من شيء خرج منه، وهو كلامه ... وروينا عن ابن عباس أن علياً رضى الله تعالى عنهما دعا عند قتال صفين : يا كهيص ، أعوذ بك من الذنوب التي توجب النقمة، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك الحرّم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تدل الأعداء، انصرونا على من ظلمنا ... قال الضحاك بن مزاحم فكان عليّ رضى الله عنه يقدّم هذه بين يدي كل شديدة. وفيما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها، كما قال أعوذ بعزة الله وقدرته، دليل أن الكلام والأسماء صفات. وعن عليّ رضى الله تعالى عنه حين حكّم الحكمين فنقم عليه الخوارج ذلك، فقالوا حكّم في دين الله من المخلوقين، فقال والله ما حكمت مخلوقا، ما حكمت إلا القرآن. وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه حين سمع قرآن مسيلمة الكذاب الذي افتعله وتخرّصه يضاهى به كلام الله تعالى والله ما خرج هذا من ال ولا من تقيّ، قال أبو عبيدة يعنى ما خرج من الله تعالى، قال وفيه دليل أن القرآن غير مخلوق، وأنه خرج من الله تعالى، تكلم به. قال ومن هذا قوله تعالى : لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولادمة، معناه الله عز وجل لا يرقبونه. وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى ذلك في قوله فضلُ كلام الله عز وجل على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه .. وذلك أنه خرج منه. وقرأت في مصحف ابن مسعود ، قال ياموسى قد فضلتك برسالاتي وبكلامي على الناس، وهذا لا يجوز فيه إلا التكلّم بالذات، مع قوله سبحانه وتعالى : وكلم الله موسى تكليما. قال أهل اللغة المصدر إذا أدخل في الفعل فهو للمواجهة والوصف لا للأمر بالفعل ولا على المجاز.\* ثم تسليم أخبار الصفات فيما ثبتت به الرويات وصحّ

النقل، ولا يتأول ذلك ولا يُشَبَّه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقاتها لله تعالى ، وينفى التشبيه والتكليف عنها، إذ لا كفو للموصوف فيشَبَّه به، ولا مثل له فيجنس منه، ولا نُشَبَّه ونصيف ، ولا نُعْمَلُ ونعرّف ونُكَيَّف . وفي رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام من قِبَلِ أَنْ الناقِلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإن كانوا عُدُولاً فيما نقلوه من الشريعة فالعَدَلُ مقبول القول في كل ما نقله، وإن كانوا كذّابوا فيما نقلوا من أخبار الصفات فالكذّاب مردود القول في كل ما جاء به، والكذب على الله كفر، فكيف تُقبَل شهادة كافر؟ وإن جاز أن يجترؤا على الله عز وجل بأن يزيدوا في صفاته مالم يسمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما كان من الأحكام أولى، ففي ذلك إبطال الشريعة وتكفير النُقَلَة من الصحابة والتابعين بإحسان، فلذلك كَفَر أصحاب الحديث من نَفَى أخبار الصفات . \* **ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم، لتأثف القلوب بذلك ونسلم لكل واحد منهم ما فعله، لأنهم أوفر وأعلى عقولا منا، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدّى إليه اجتهاده، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض، إلا أن علومنا وعقولنا تضعف وتنقص عن علم أديانهم علما، كما فضلوا علينا بالسوابق سبقا.** \* **وَأَنْ يقدّم مَنْ قدّم الله ورسوله وأجمع المسلمون الذين تولّى الله إجماعهم على الهداية، وضمن لرسوله الله صلى الله عليه وسلم تفضيلا وتشريفا لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة . وقد قال على لما قيل له ألا تستخلف علينا، فقال لا أستخلف عليكم بل أكلِّمكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيرا جمعكم بعد نبيكم على خيركم.** قال إبراهيم النخعي فلما سلم الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما الأمر إلى معاوية سُميت سنة الجماعة، وقال له رجل من الشيعة يأمذّل المؤمنين، فقال بل أنا مُعزّ المؤمنين، سمعت أبي عليه السلام يقول لا تكرهوا إمارة معاوية فإنه سيلي هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السيوف تبدر عن كواهلها كأنها الحنظل. فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة بإمامته وأجمعوا على خلافته. واتفق الأئمة من أهل الشورى على تقدمته على حديث ابن عمر فى التفضيل، قال : كنا نقول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ثم عمر ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكر... وعلى حديث سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً... فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة ، وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنصرة، وخيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل اختار أصحابي على العالمين، واختار من أصحابي أربعة فجعلهم خير أصحابي، وفي كل أصحابي خير، واختار أمتي على الأمم، واختار من أمتي أربعة قرون، فكل قرن سبعون سنة... فإننا نحن قوم متبعون نقفو الأثر، غير مبتدعين بالرأى والمعقول نرد به الخبر، إذ لا مدخل للقياس والرأى فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنما يؤخذ التفضيل توقيفاً وتسليماً، ومن طريق الإجماع والاتباع خشية الشذوذ والابتداع، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عضواً عليها بالنواجذ ومن شدّ ففى النار ... وقال تعالى فى تصديق ذلك : **ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ...** وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفاً للقياس والمعقول ، توكيداً للنبوة ، وتأييداً للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالملك ، ولا ينحو النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلافة نحو الأ كاسرة والأقاصرة فى المملكة، وكما كانت النبوة مخالفة للملك جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيوتهم. ولو كان للمعقول والقياس مدخل فى التفضيل لكان أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن ابنه، لأن فيه البتوة، والعباس عمه إذ فيه الأبوة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك. وبمعنى هذا من إخراج الخلق من المألوف ورفع سكنهم عن المعهود أن **أبا تحافة وأبا سفيان** ماتا مؤمنين، وأن أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه ماتا كافرين، أجمع أهل النقل والتواريخ على ذلك. وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما أسلم أبوه بين يدي رسول الله عام فتح مكة : والله يارسول الله لإسلام **أبى طالب** كان أحب إلى لو أسلم من إسلام أبى ليقر الله به عينك - فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضاً فلما سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على مراتبها فى الخلافة، فكان آخرهم استخلافها هو آخرهم موتاً، فدبر خلافتهم على ما علم من آجالهم ووفى لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلافة أنبيائه السوالف، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وبدلهم أمنا بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهدَ ومن أوفى بعهده من الله، فذلك تأويل قوله عز وجل : **وعد الله الذين آمنوا وعملوا**

الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم - الآية\* \* وأن يعتقد أن الإمامة فى قریش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة. وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل ، ويطيع إذا أمر بالتقوى والبرحتى تاتيه يدُ خاطئة أو منية قاضية، كذلك السنة. قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى :هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة، اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغض السلطان ، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان... وسئل أى الناس خير؟ فقال : السلطان. قيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان ؟ فقال : مهلاً ، إن لله تعالى فى كل يوم نظرتين، نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم ، ونظرة إلى سلامة أفكارهم، فيطلع فى صحيفته فيغفر له ذنوبه... وقال أبو محمد: الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحاً فهو القطب الذى تدور عليه الدنيا... قوله من الأبدال يعنى أبدال الملك... كما حدثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : أبدال الدنيا سبعة، على مقاديرهم يكون الناس فى كل زمان من العبّاد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأمير الجيش وصاحب الشرطة والقاضى وشهوده. وروينا فى الخبر : عدل ساعة من إمام عادل خيرٌ من عبادة ستين سنة. ويقال إن الإمام العادل يوضع فى ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان عمرو بن العاص يقول إمامٌ غشوم خير من فتنة تدوم. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : يكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر. وفى الخبر الآخر: يليكم أمراء يقولون مالم يعرفون ، ويفعلون ما ينكرون، وفى لفظ يفعلون مالم يؤمروا. قلنا أفلا نقاتلهم، قال : لا ، ما صلّوا. وفى الحديث الآخر : ما أقاموا الصلاة... وكان سهل رحمه الله تعالى يقول من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق. ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل... وكان يقول الخشيبات السودالمعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيا يقضون فى المسجد... وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول إذا كان السلطان صالحاً فهو خير من صالحى الأمة، وإذا كان فاسقاً فصالحو الأمة خير منه. وهذا قول عدل.\* \* ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنوبه وإن عظم، ولا ينزله جنة ولا ناراً بل يرجو له ويخاف عليه، وأن من مات مُصراً على الكبائر عن غير توبة منها فى مشيئة الله تعالى ، إن أثبت وعيده عليه كان عدلاً، وإن عفا عنه وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلاً. ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى

بشيء ، ولا نوجب لنا عليه شيئاً ، إنما نحن بين عدله وفضله ، وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة. كيف وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من وعده الله تعالى على عمل ثوابا فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار... والحديث الآخر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، فقال : جزاؤه جهنم إن جازاه.. ففى كل قضاء الله تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق.\*

وإن يُصدّق بجميع اقدار الله تعالى خيرها وشرها، أنها من الله تعالى، سابقة فى علمه، جارية فى خلقه بحكمه، وأنهم لاحول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوّة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطبقون ما حملهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً إلا بمشيئته. ونؤمن بقدرة الله وآياته فى ملكه وغيب ملكوته ، مما ذكر فى الأخبار من كراماته لأوليائه وإجاباته لإحبابه ، وإظهار القدرة للصدّيقين والصالحين ، مزيداً لإيمانهم ، وثبتاً ليقينهم ، وتكرماً وتشريفاً لهم، وأنه ليس فى ذلك إبطال لنبوّة الأنبياء ، ولا إحاض حججهم من قبل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء ولا ادّعوا مظهر لهم بحولهم وقوتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم ، ولا تظاهراً به ، ولا اجتلاءً بالدنيا ، ولا طلباً للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصاً لهم وتعريفاً، وهم للأنبياء متبعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولستنتهم مقتدون، فاتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالا لهم، وعندهم أمثالا. وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخبار بما ذكرناه فغنينا بالتواتر عن التناظر.

وأما الثمانى الواقعات فى الآخرة : \* فإن يعتقد العبد مساطة منكر ونكير، يُقدان العبد فى قبره سوياً ذا رُوح وجسد، فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهى آخر فتنة تُعرض على المؤمن، وهما فتاناً القبر. كذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى قول الله عز وجل يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، قيل عند مساطة منكر ونكير، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.\* وهذاب القبر حق وحكمة وعدل على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية، وإن كان نعيماً كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى النعيم كما

اشتركوا فى الطاعة. وهذا من أحكام الآخرة يكون بمجارى القُدرة، ليس على ترتيب العقول ولا عُرف العقول، يوصل الله العذاب والنعم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان، وليس فى القدرة مسافة ولا ترتيب ولا بعد ولا توقيت \* **ويؤمن بالميزان** ذى الكفتين واللسان أنه حق وعدل وحكمة وفضل ، كما جاء وصفه من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى والصنح يومئذ مثاقيل الذرّ والخردل بحقيقة العدل، **وقد خاب من حمل ظلما**، فتكون الحسنات فى صورة تُطرح فى كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظلّمة ، فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى. \* **ويعتقد أن الصراط حق على ما جاء وصفه فى الآثار كدقة الشعرة وحدّ السيف**، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، يثبتّ عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله عز وجل ، فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى ، وتزلّ عنه أقدام المنافقين فتهدى بهم فى النار بحكم الله عز وجل \* **ويؤمن بوقوع الحساب** وتفاوت الخلق فيه، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكفرون. وكان إمامنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول : يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السنّة، ويسأل المسلمون عن الأعمال. \* **ويؤمن بالنظر إلى الله جلّ جلاله عياناً بالأبصار كفاحاً**، مواجهة تكشف الحُجُب والأسْتار بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء ، وهو معنى قول الله تعالى للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تبارك وتعالى. وكذلك فسّرهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. \* **ويعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام** ، حتى لا يبقى فى جهنم موحّد ، بفضل الله ، ثم بشفاعته الشافعين من النبيين والصدّيقين، وأنّ لكل مؤمن شفاعة بإذن الله فيشفع النبيون والصدّيقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين ، كل واحد وسّع جاهه وقدر منزلته، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إثبات الشفاعاة وفى إخراج الموحدين من النار، وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى : **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**، قال أهل التفسير ذلك عند إخراج الموحدين من النار ، ويبقى الباقي لرحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله من لم يشفع لهم الشافعون ، ولم يقدم فى الشفاعاة لهم المرسلون. هكذا روينا معناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .... فهذه عقود السنّة الهادية ، وطريقة الأمة

الراضية . وقد أجمع السلف من المؤمنين على ما ذكرناه من قبل أنه لم يُنقل عن أحد منهم خلافه ، ولا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضده، بل قد روى في كل ما ذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعان تشهد لإثباته، وتولى الله تعالى إجماعهم على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله.

**روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم** إن الله عز وجل ضمن لى، وفى لفظ آخر أعطانى، أن لا تجتمع أمتى على ضلالة، فإذا رأيتم خلافا فكونوا مع السواد الأعظم. والسواد الأعظم يعبر به عن الكثرة، فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامة من المسلمين والكافة من العموم، وأن المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فرق وشراذم قليلون ، وشيع وأحزاب متفرقون، لأن كل مبتدعة منهم فرقة، وكل شرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجم الغفير الدهماء إلا أهل السنة والجماعة، وهم السواد العامة، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز وغيره من الصالحين يقولون ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب، أى هو القوى السليم العام، وفسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الآخر فقال : من كان على ما أنتم عليه اليوم... فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة ولا تكلموا فيه ولا نُقل عنهم، وأنهم كانوا على ما ذكرناه أنفاً لأنه لم يرو عن أحد منهم خلافه، بل قد نقل عنهم وفاقه فى القرن الأول والثانى، ثم حدث ما ذكرناه من الخلاف فى بعض القرن الثالث وفى القرن الرابع. فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين على حسن توفيقه وجميل هدايته، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، فنعمة الله تعالى علينا بالسنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله صلى الله عليه وسلم كنعمته علينا بمعرفته، لاقتران طاعته بطاعته، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سنته. وقد رويانا فى حديث عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشيطان مع الواحد ، وهو من اثنين أبعد. ذنب أحدكم كذئب الشاة يتبع الشاة والقاصية، فمن أراد بحبوة الجنة فليزِم الجماعة، ومن شدَّ فى النار. وروينا عن أبى غالب عن أبى أمامة أنه نظر إلى رعوں العروية جىء بها من البصرة فنصبت على الخشب بدمشق، قال شر قتلى تحت ظل السماء ، ثم قال كلاب النار، ثم قرأ فأماً الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، ثم قرأ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأماً الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ، ويشير بإصبعه إليهم، ثم بكى ، فقلت يا أبا أمامة تقول فيهم

ماتقول ثم تبكى، فقال قاتل الله إبليس ما صنع بهؤلاء الناس يا أبا غالب، إنهم كانوا على ديننا فأبى مما هم لا قون، هؤلاء بأرضك كثير فأعيذك بالله منهم ثلاث مرات، فقلت آمين يا أبا امامة، أشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو شيء تقوله من قبيل رأيك، قال لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع يقول: تفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتي عليها فرقة، كلها في النار إلا السواد الأعظم، والجماعة خير من الفرقة، والطاعة خير من المعصية... هؤلاء الخوارج، وهم **الحرورية** الذين خرجوا على أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** رضى الله تعالى عنه، وهم **أول قرن** نبغ من المبتدعة، **وأول بدعة** ابتدعت في الإسلام، وكانوا قرآء، المصاحف في أعناقهم، والسجادات كركب المعزى في جباهم، فأنكروا عليه تحكيم الحكمين، وسأله أن ينقض حكمه فيرجع عنه، وقالوا لاحكم إلا لله، وأنكروا أمر السلطان، ورأوا الخروج على الإمام، وكفروا عثمان، وصوبوا قتل غوغاء المصريين له، وطالبوا علياً عليه السلام أن يوافقهم على رأيهم ويتابعهم على أهوائهم على أن يقاتلوا معه المسلمين إن رجع عن تحكيم الحكمين، وكفروا أهل الكباير بالمعاصي، فرأى علي ما أراه الله تعالى، ويماعهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قتل المارقين فقتلهم، فهؤلاء في النار، وقاتلهم - على وأصحابه - خير أهل الأرض في الجنة. وكان رئيسهم في الضلال وفي القتال **عبد الله بن الكوا الأعمر**، وكان على يبغضه ويسببه قبل أن يظهر منه ما ظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوا في ستة آلاف، فأرسل على عليه السلام **عبد الله بن عباس** إليهم يناظرهم ويحاجهم فسبوه ويطشوا به، وجراهم عليه بن الكوا هذا، فقام خطيباً فيهم فقال أتعرفوني بهذا، أنا أعرفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم ما ضربوه لك **إلا جدلاً**، بل هم قوم خصمون، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس فسأله، فكشف له عن الحق واستتاب منهم ألفين، وقاتل على كرم الله وجهه أربعة آلاف، فهذه **أول فرقة** مرقت من الدين واتبعت غير سبيل المؤمنين، ثم افتردت **الفرقة الثانية** بالمدائن فرأوا دين الإرجاء وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وكتبوا بذلك إلى أمير الشام، فهمم بقتالهم ثم شغل عنهم بقتال الروم، ثم افتردت **الفرقة الثالثة** بالبصرة وهم **القدرية**، إمامهم **معبد الجهني** وتابعه **عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزالي** وأصحابهم، ثم خرجت **الفرقة الرابعة** من الكوفة وهم **الرافضة**، سموا بذلك لما رفضوا **زيد بن علي بن الحسين** حين خرج يقاتل هشاماً،

فقالوا له تبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما، قال هما جدائى ، إماما عدل، لا أتبرأ منهما، فرفضوه. ثم افتردت كل فرقة ثمانى عشرة فرقة، فتمت اثنتان وسبعون فرقة، وكلها نبيع بأرض العراق ومنه طلع قرن الشيطان. وظهرت الفتن نعوذ بالله منها، ماظهر منها ومابطن. وقد روينا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لله عز وجل ثلاثة أملاك، ملك على ظهر بيت الله تعالى، وملك على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وملك على ظهر بيت المقدس، ينادون فى كل يوم، يقول الملك الذى على ظهر بيت الله تعالى من ضييع فرائض الله خرج من أمان الله، ويقول الملك الذى على ظهر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس من أكل حراما ، يقبل منه صرف ولا عدل.

### شرح معاملة القلب من العلم الظاهر وذكر مبانى الإسلام واركان الإيمان

قال الله تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا، وقال عز وجل : واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا، وقال تعالى : ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين. فمبانى الإسلام خمسة: أولها شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وهما كواحدة لاتصال إحداهما بالأخرى فى الوجوب والحكم؛ وإقام الصلاة الخمس، وهن كواحدة منها لتعلق كل واحدة بصاحبتهما؛ وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة لاقترانها بها والاشتراط بها ؛ وصوم رمضان؛ وحج البيت وهما كشىء واحد من الفرض. فهذه الخمس كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب ، وإن اختلف الحكم فى سقوط فعل بعضها بشرط. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت .

**واركان الإيمان سبعة:** الإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه والإيمان بالملائكة والشياطين، والإيمان بالجنة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم صلى الله عليه

وسلم ، والإيمان بالبعث بعد الموت ، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، حلوها ومرها، أنها من الله تعالى قضاء وقدرأ أو مشيئةً وحكما، وأن ذلك عدلٌ منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يُسئل عما يفعل، ولا تُضرب له الأمثال بملزمات المعقول وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علوا كبيرا. وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال، فقال تعالى جدُّه : **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا، فكيف بمن ضرب المثل للسيد الأجل بعد نهيهِ عن ذلك وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول : فلا تضربوا لله الأمثال إنَّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون .** والإيمان بما صحَّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد، والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرط الإيمان وقرنها بطاعته، فقال تعالى : **اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولعلكم ترحمون،** وحذَّر من مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الاستجابة له مقامه ، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلا عنه، فقال تعالى : **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم،** كما قال سبحانه وتعالى : **ويحذركم الله نفسه،** وقال تعالى : **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم،** لأنه قال : **إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله،** وهذه أمدح آية في كتاب الله تعالى وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه جعله في اللفظ بدلا عنه، وفي الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه كأنما، ولا لام الملك فيقول لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخلق غير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

**ذكر اتصال الإيمان بالإسلام في المعنى والحكم . وافتراقهما في التفصيل  
والاسم . وأن كل مؤمن مسلم . وتحقيق القول بالعمل . وإبطال مذهب  
الجمية والكرامية والحروية. وبيان مذهب أهل السنة والجماعة .  
ونقنا الله تعالى لذلك**

قال قائلون: الإيمان هو الإسلام، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا يقرب من مذهب المرجئة . وقال آخرون إن الإسلام غير الإيمان، وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير، وهذا قريب من قول الإباضية. فهذه مسألة مشككة تحتاج إلى شرح وتفصيل، فمثل الإسلام

من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد، فهما شيآن فى الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى، فهما كشىء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا بد للمسلم من إيمان به يحق إيمانه، من حيث اشترط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة، فقال فى تحقيق ذلك : **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه، وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل : ومن ياتيه مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى.** ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقاً يَنْقُلُ عن الملة. ومن كان عقده الإيمان بالغيب لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفاً لا يثبت معه توحيد. ومن كان مؤمناً بالغيب مما أخبر به الرسول عن الله سبحانه، عاملاً بما أمر به، فهو مؤمن مسلم، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلماً، وإجاز أن لا يسمى كل مسلم مؤمناً بالله تعالى ورسله وكتبه.

ومثل الإيمان من الأعمال كمثل القلب من الجسم لا ينفك أحدهما من الآخر، فلا يكون ذو جسم حى لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له، فهما سببان منفردان، وفى المعنى والحكم متصلان. ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة، لا يقال حبتان، لتقارب وصفيهما، فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان، الإسلام هو ظاهر الإيمان، وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام، وهو أعمال القلوب. **روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: الإسلام علانية والإيمان سرّ، وفى لفظ آخر والإيمان فى القلب... فالإسلام إعلام الإيمان، والإيمان عقود الإسلام، فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ومثله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنية... أى لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن قوله صلى الله عليه وسلم «إنما» تحقيق للشىء ونفى لما سواه، فأتيت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وأعمال القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلا بهما، لأن الشفتين، تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام، كذلك فى سقوط العمل ذهاب الإيمان، ولذلك عدّ الله تعالى فى نعمته على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله تعالى «الم نجعل له عينين ولسانا**

وشفتين ، المعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً ، فعبر عن الكلام باللسان والشفيتين لأنهما مكان له ،  
وذكره الشفتين لأن الكلام الذى جرت النعمة به لا يتم إلا بهما .

ومثل الإيمان والإسلام أيضاً كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر متجاف وأطناب ، وله  
عمود فى باطنه ، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهى الأطناب  
التي تمسك أرجاء الفسطاط ، والعمود الذى فى باطن الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط  
إلا به ، فقد احتاج الفسطاط إليهما إذ لا إستقامة له ولا قوة إلا بهما ، وكذلك الإسلام من أعمال  
الجوارح ولا قوام له إلا بالإيمان ، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام ، وهو  
صالح الاعمال ، وقد عبر الله تعالى عن الإيمان بالإسلام ، فلولا أنها كشيء واحد ما عبر عن  
أحدهما بالآخر ، فقال سبحانه فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت  
من المسلمين ، ولم يكونا بيتين ، إنما هم أهل بيت واحد ، لوط وبناته ، وقال عز وجل فى مثله إن  
كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، فعطف بقوله إن كنتم مسلمين على قوله  
إن كنتم آمنتم ، فدّل على أنها اسمان بمعنى واحد ، وهذا كقوله تعالى فيما عبر عن الأيام  
بالليالى ، لأن اليوم مرتبط بالليلة ، وأنت تعلم أنها شيئان ، فقال فى قصة واحدة قال آيتك أن  
لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وقال أيضاً سبحانه آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال  
سويّاً ، وأيضاً فإن الله تعالى قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحداً ، فلولا أنها كشيء واحد  
من الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً ، فقال سبحانه كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد  
إيمانهم ، وقال يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ، فجعل ضدهما الكفر .

وعلى مثل هذا خبر رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام بوصف واحدة فقال فى حديث بن  
عمر بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة ،  
وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت . وفى حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم  
سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف ، فدّل بذلك أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ، ولا  
إسلام علانية إلا بالإيمان سرا ، وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بغير صاحبه ، ولا  
يصح أحدهما إلا بالآخر ، كما لا يصحان ولا يوجدان معا إلا بنفى ضدهما وهو الكفر .

وقد اشترط الله تعالى للإيمان العمل الصالح ونفى النفع بالإيمان إلا بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام، فقال تعالى «إلا من تاب وأمن وعمل عملاً صالحاً فلنؤتيك به» **الله سيأتهم حسنات** ، والإجماع من أهل التفسير إلا من تاب من الشرك كقوله تعالى «**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم**» ، بعد قوله وخذوهم واحصروهم. وقال سبحانه وتعالى «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً». وقال تعالى «الذين آمنوا وكانوا يتّقون» ، كما قال تعالى «الذين آمنوا بأياتنا وكانوا مسلمين» ، فاشترط للإيمان الأعمال والتقوى، كما اشترط للأعمال الصالحة الإيمان، فكما لو عمل العبد بالصالحات كلها لم تنفعه إلا بالإيمان. كذلك لو آمن الإيمان كله لم ينفعه إلا بالأعمال. وفي وصية لقمان لابنه: يا بني كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب، فكذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعمل والعلم... فأما تفرقة النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام لما سأله ما الإيمان، فقال : أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب ، وبالقدر خير وشره... ثم قال ما الإسلام، فذكر الخصال الخمس، فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعاني فيما توجب الأفعال الظاهرة أن تكون علانية، إلا أن ذلك يفرق بين الإسلام والإيمان في المعنى باختلاف وتضاد، وليس دليل أنهما مختلفان في الحكم إذ قد يجتمعان في عبد واحد مسلم مؤمن، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف لقلبه، وما ذكره من العلانية وصف لظاهر جسمه، والدليل على ذلك أنه جعل وصف الاسمين معنى واحداً في حديث ابن عمر وفي حديث وفد عبد القيس الذي ذكرناه عن ابن عباس. وقد روى ذلك مفصلاً في حديث على رضي الله عنه: الإيمان قول باللسان، وعقد بالقلب، وعمل بالأركان... فأدخل أعمال الجوارح في عقود الإيمان. وأيضاً فإن الأمة مجمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكرناه من عقود القلب في حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكرناه من وصف الإسلام لا يسمى مؤمناً، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان لا يكون مسلماً. وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وليس فيه دليل على أن الإسلام غير الإيمان، أو أن المسلمين سوى المؤمنين، أو أن الإيمان ضد الإسلام.

والوجه الثاني من تأويل الخبر أن معنى قوله أو مسلم يعني به أو مستسلم، فإذا جمع بين عقود القلب وبين أعمال الجوارح كان مسلماً مؤمناً. ومن لم يقل بهذا الذي ذكرناه فقد

كفرَ أبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَجَهَلَهُ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرَّوْدَةِ، وَادَّعَى عَلَيْهِ أَنَّهُ قَتَلَ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْقَوْمَ جَاؤُوا بِعُقُودِ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَجْحِدُوا التَّوْحِيدَ وَلَا أَكْثَرَ الْأَعْمَالِ، وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا الزَّكَاةَ، فَاسْتَحَلَّ قَتْلَهُمْ، وَوِطِئَهُ الصَّحَابَةُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى اسْتَتَابَ مِنْ رَجْعِ مَنَّهُمْ. وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ الَّذِي جَاءَ ظَاهِرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ فِي أَنَّهُ أُعْطِيَ رِجْلًا وَلَمْ يُعْطِ الْآخَرَ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللهِ تَرَكْتَ فَلَنَا لَمْ تَعْطِهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ أَوْ مُسْلِمٌ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ فَأَعَادَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مُسْلِمٌ، فَإِنَّمَا فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفْرِيقِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ فِي التَّفَاضُلِ وَالْمَقَامَاتِ، أَيْ لَيْسَ هُوَ مِنْ خُصُوصِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَمَّا ضَلَمَهُمْ، فَكَشَفَ مَقَامَهُ الَّذِي خَفِيَ عَلَى سَعْدٍ كَمَا كَشَفَ مَقَامَ حَارِثَةَ عَنْ حَقِيقَةِ إِيْمَانِهِ إِذْ كَانَ خَامِلًا لَا يُؤَيِّهِ لَهُ، فَقَالَ كَيْفَ أَصْبَحْتَ فَتَنطِقُ بِوَجْهِهِ عَنْ مَشَاهِدَتِهِ، فَقَالَ عَرَفْتُ فَالزَّمْ، فَهَذَا دَلِيلٌ لَنَا فِي تَفْضِيلِ مَقَامِ الْإِيمَانِ عَلَى مَقَامِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ وَإِنَّ تَسَاوَوْا فِي أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَا حَدَّ لَهُ وَإِنَّ كَانَتْ صَحَّتْ بِمَحْذُودِ الْإِسْلَامِ، فَاتَّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي آمَنَ طَوْعًا عَلَى الْمُكْرَهَةِ. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا يُعْطَى مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ الرُّؤْسَاءِ، وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ عَادِيَّتَهُ وَجَمَعَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَحْرِيسُهُ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا أَكْرَمَ الرَّجُلَ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ هَذَا أَحْمَقُ مَطَاعٍ، أَوْ مَنْ يَكْتُمُ عَشِيرَتَهُ وَاتَّبَاعَهُ فَيَكُونُ ظَهِيرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ مَنْ فِيهِ غَنَى لِلْمُسْلِمِينَ وَمَنْفَعَةٌ وَعِزَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، فَأَمَّا الْإِتْبَاعُ وَالسَّفَلَةُ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ فَلَمْ يَكُنْ يُوَثِّرُهُم بِالْعَطَاءِ، بَلْ كَانَ يُؤَثِّرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَقْدِمُهُمْ عَلَى أَرَاذِلِ الْمُؤَلَّفَةِ وَضِعْفَانِهِمْ، كَمَا فَعَلَ بِالْقِسْمِ الَّذِي قَسَمَهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْطَاهُمْ إِلَّا رِجْلًا مِنَ الْغُرَاةِ لَهُ سَجَادَةٌ مَحْلُوقِ الرَّأْسِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُعْطِهِ، فَقَالَ إِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، وَاللهِ مَا عَدَلَ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ لَمْ أَعْدَلْ فَمَنْ يَعْدِلُ. وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ قَرْنٍ نَبِغَ مِنَ الْخَوَارِجِ. أَفَلَا تَرَاهُ لَمْ يُعْطِ هَذَا شَيْئًا وَلَمْ يَسْتَمَلْهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ خُصُوصِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِمَّنْ يُتَّقَى بِأَسِهِ أَوْ يَظْهَرُ فِي الْإِسْلَامِ غِنَاهُ فَيُتَأَكَّفُ بِالْعَطَاءِ. وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ فَرِهَوْنَ حِينَ أَلْجَمَهُ اللهُ الْغُرُقَ فَاضْطَرَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي أَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ - أَجْمَعَ أَهْلَ التَّفْسِيرِ أَنَّ مَعْنَاهُ مِنَ الْمُسْتَسْلِمِينَ. فَإِنَّ قِيلَ فَقَدْ رَوَى فِي آخِرِ هَذَا الْخَبَرِ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى ضِدِّ هَذَا التَّوِيلِ وَأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ فَاضِلًا لَا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَسْلِمًا، وَهُوَ أَنَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنِّي لِأَعْطِي قَوْمًا وَأَمْنَعُ آخَرِينَ، أَكْلَهُمْ إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ

من الإيمان، منهم فلان... قيل إن هذا كلام مستأنف من رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاده القائل، لأنه بُعثَ بجوامع الكلم، وكان يُسئل عن الشيء فيخبر به ويزيد عليه للبيان والهداية الذي أُعطى، فكانه أراد أن يخبر بتنوع عطائه ويضروب المأطمين من الناس، هذا للحاجة، وهذا للفصل، وهذا للتآلف، لأن الذي منعه أفضل من الذي أعطاه، إذ لو كان الأمر كما قال هذا القائل لكان الإسلام أفضل من الإيمان، وكان المسلمون أفضل من المؤمنين، ولم يقل بهذا أحد من العلماء، إلا أن الإيمان خاصٌ فيه التفاوت والمقامات، فهو يشتمل على الإسلام، والإسلام داخل فيه، والمؤمنون هم خصوص المسلمين، منهم المقرَّبون والصدِّيقون والشهداء، والإسلام عام محدود يوصف به عموم المؤمنين ويدخل فيه أهل الكبائر والإجرام، ولا يخرج منه من فارق الكفر ووقع عليه اسم الإيمان، كما قال تعالى «فمن افترى على الله الكذب»، وأخبر عنه بالفسوق، «ومن أظلم ممن افترى على الله كذب وهو يدعى إلى الإسلام، والله لا يهدي القوم الظالمين»، - فعلى إجماعهم أن الإيمان أعلن إسقاط وهم من توهم أن الرجل كان أفضل، كيف وقد روينا تخصيص الإيمان عن النبي صلى الله عليه وسلم نصاً أنه سُئل أى الأعمال أفضل، قال الإسلام، قيل فأتى الإسلام أفضل، قال الإيمان، فجعل الإيمان مقاما فى الإسلام. ففى هذا الحديث أيضا تخصيص للإيمان على الإسلام لا تفرقة بينهما، بمعنى قوله فى وصف الرجل «أو مسلم»، فدل على بطلان ما توَّله القائل لأن هذه اللفظة بالفتح الاستفهام لا تستعمل فى عرف الكلام إلا فى الوصف الأنقص والحال الأدنى، فافهم.

وأما قوله تعالى قالت الأعراب أمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، فإن هذا أيضا من هذا النوع، معناه قولوا استسلمنا حذر القتل. وهؤلاء ضعفاء المؤلفه وأراذلهم كانوا ينقمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم إيتاره وتقديمه المؤمنين بالعطاء عليهم، وإرجاءه إياهم، فقالوا لِمَ لا يعطينا كما يعطى المؤمنين فإننا مؤمنون كههم، فأنخبر الله تعالى بذلك عنهم وأكذبهم فى دعواهم. وهم الذين قص الله تعالى أخبارهم فى قوله تعالى «ومنها من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون»، ففى هذه الآية دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يعطى هذا الضرب من المؤلفه. وليس فى الآية تفرقة بين الإيمان والإسلام بدليل قوله تعالى فى الآية التى بعدها «يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا على إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن

هداكم للإيمان» ، فسَمَى إسلامهم إيماناً لأنه عطف ببعض الكلام على بعض وردّ أوله إلى آخره، وإنما استقطبَ المنّة به على رسوله وأثبت المنّ عليهم بنفسه، وعطف بأخر الاسم على أوله، وغيّر بين اللفظين لاتساع لسان العرب، وليفيدنا أفضل بيان ، **وَأَنَّ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ اسْمَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ** ، كما قال تعالى «**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرِثُكُمْ**» ، ولم يقل يخلقكم، ليبين أنّ الرازق هو الخالق ، وليفيد وصفاً ثانياً وَصَفَ به نفسه تعالى. فأما ما روى عن أبي جعفر محمد بن عليّ الإيمان مقصور في الإسلام، فمعناه هو باطنه ، قال وأدار دائرة كبيرة فقال هذا الإسلام، ثم أدار في وسطها دائرة صغيرة فقال وهذا الإيمان في الإسلام، فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار في الإسلام، يريد أنه خرج من حقيقة الإيمان وكماله ، ولم يكن من الموصوفين المدوحين من المؤمنين ، لأنه خرج من الاسم والمعنى إلى الدائرة الصغيرة غير خارجة من الدائرة الكبيرة التي أدارها حولها فجعلها فيها وضرب المثل بها، لكنها خالصها أو لبّها ومخصوصةً فيها، ولو أراد أنهما منفصلان لجعلهما دائرتين منفردتين ولم يجعل إحداهما جوف الأخرى وكذلك جاء الخبر لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، معناه كامل الإيمان أو مؤمن حقا ، لأن حقيقة الإيمان وكماله بالخوف والورع، إذ الأمة مجمعة أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان وهو الخوف والورع، ولم يخرج من اسمه ومعناه وهو التصديق والتزام الشريعة، وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمان الحياء لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الإيمان، والمستحى لا يكشف عورته على حرام. ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد وإيجاب الأحكام. وقد روينا عن الحسن بيان ذلك أنه قال الإيمان حقيقة الإسلام. وقيل لهذيفة من المنافق؟ فقال الذي يتكلم بالإسلام ولا يعمل به، فسَمَى الإيمان إسلاماً وقرن القول بالعمل. وقال الثوري رحمه الله الناس عندنا مؤمنون مسلمون في حدودهم وفرائضهم، وفي النكاح وفي الموارث وفي الصلاة خلفهم والصلاة عليهم، لا يُحاسب الأحياء ولا يقضى على الأموات ، ونكّل ما لم نعلم من سرائرهم إلى الله تعالى، ونسمع بالتشديد فنخافه، ونسمع اللين فنرجوه لأهل القبلة، ونتهم رأينا لرأى السلف قبلنا، وما ذكرناه من أن الإسلام والإيمان قرينان لا يفترقان فهذا مذهب فقهاء أصحاب الحديث وطريقة أئمة السلف رضى الله عنهم أجمعين.

**باب ذكر تفضيل بيان ما نقل عن المحدثين من التفرقة بينهما وما جاء في معناه**

فأما ما حكى عن بعض أصحاب الحديث أنه فرّق بين الإيمان والإسلام، فقال الزهري الإسلام الكلمة، والإيمان العمل؛ وقال عبد الرحمن بن مهدي وقد سئل عن الإيمان والإسلام فقال هما شيان، وقول حماد بن زيد الإسلام عام والإيمان خاص، فإن قول هؤلاء على جملة قولنا، وهو دليل له وشاهد عليه، وأنهم لم يفرقوا بين الإيمان والإسلام تفرقة اختلاف ولا تضاد، ولم يريدوا أن أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر ليواطوا مذهب المرجئة، لأنهم أبعد شيء منهم، إذ هم أصحاب أثر وتوقيف، وإنما فرقوا بينهما تفريق تفاوت وتخصيص، أي أن الإيمان أخص وأعلى لأن الزيادة والنقصان فيه، والفضائل والمقامات عنه، والاستثناء واجب فيه، وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلا الكافرون إذ ليس وراءه شيء. وعند جماعة من العلماء أن الاستثناء غير واجب في الإسلام لأنه محدود معلوم. فهذا كان قصد من فرّق بين الإسلام والإيمان، وهي طريقة بعض السلف وعبارة القدماء، وهو على نحو ما فصلناه وبمعنى ما بيناه، وإن كنا نحن أظهر تفصيلاً وأبين ترتيباً. وهذا مثل الخبر الذي روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الإيمان أفضل، قال الإسلام، قيل فأي الإسلام خير، قال الإيمان، فلم يفرق بينهما، ولكنه خصص فجعل الإيمان حقيقة الإسلام وخالصة، لأنه أخبر أنه منه، فهذا من قوله من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، أي من تحققه بالإسلام، ومن أعلى إسلامه هذا الوصف، وهذا هو المؤمن الموقن الزاهد، وهذا يشبه ما مثله أبو جعفر محمد بن عليّ في أنه أدار دائرة كبيرة وأدار فيها دائرة صغيرة تخصيصاً. وجميع ما شرحناه وذكرناه عن السلف يبطل قول المرجئة والكرامية والأپاضية، ويدحض دعواهم في أن الإيمان قول أو معرفة وعقد بلا عمل. وهو أيضاً ردُّ على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، الذين يقولون مؤمن وفاسق وكافر، فلا يجعلون الفاسق مؤمناً. وهو ردُّ على الحشوية والجرمية والقطعية والحرورية، أصناف من الخوارج، يقولون من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفار يحل قتلهم. ويقولون إن أهل البغي من الأئمة كفره يجب على الرعية قتالهم، ومنهم من يقول إن من بغي على الإمام فقد كفر بخلاف قول الله تعالى وإن طائفتان من المؤمنين اتتلوا فأصلحا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله، فأمر بقتال أهل البغي بتسميته إياهم مؤمنين ولم يجعل لهم منزلة ثالثة. وقد ابتلينا بطائفتين مبتدعتين متضادتين في المقالة: المرجئة والمعتزلة. قال المرجئة إن الموحدين لا يدخلون النار وإن عملوا بالكبائر والفسوق

كله. لأن ذلك لا ينقص إيمانهم. وقالت المعتزلة إن الفاسق ليس بمؤمن، وإن مات على صغيرة من الصفات من غير توبة دخل النار لا محالة ولم يخرج منها، خالداً مع الكفار. والصبواب من ذلك أن الفاسق مؤمن لا يخرج ففسقه من اسم الإيمان وحكمه، ولكن لا يدخله في المؤمنين حقاً من الصديقين والشهداء، وأن أهل الكبائر قد استوجبوا الوعيد ودخول النار، وجائز أن يعفو الله تعالى عنهم بكرمه ويسمح لهم بجوده، كما روينا عن طي أنه قال : عليكم بالتمط الأوسط الذى يرجع إليه الغالى. وقد قال صلى الله عليه وسلم فى وصف علماء السنة ومدحهم : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين... **فالمغالون** هم المجاوزون للسنة والآثار، والمبطلون هم المدعون بالرأى والقياس، والجاهلون هم الشاطحون من المتصوفة الضلال. وعدول كل خلق من اتبع سنة صالح من سلف ولم يبتدع فى الدين، ولا اتخذ وليجة تون طريق المؤمنين، وهم رواة الأخبار وجملة الآثار من المحدثين وفقهاء المسلمين. ويوضح قولنا ويصححه قول الله تعالى **اليوم أكملت لكم دينكم**، إجماعاً من المسلمين، وأنها نزلت بعد نزول الفرائض وإتمام الشرائع وفى حجة الوداع، وهى آخر حجة حجها رسول الله صلى عليه وسلم بعد نزول فرض الحج، لأن سورة المائدة مدنية بإجماع من القرأء، وهى من آخر ما نزل من القرآن باتفاق من الفقهاء، ولم يلبث رسول الله صلى عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إلا **ثلاثة أشهر وثلاثة أيام**، اتفق عليه أهل التاريخ، لأنها نزلت يوم التاسع من ذى الحجة من آخر يوم عرفة، وقبض رسول الله صلى عليه وسلم **لاثنتى عشرة خلون من ربيع الأول**، فقال الله تعالى بعد نزول الأحكام وإحكام الحلال والحرام **اليوم أكملت لكم دينكم**، والإكمال هو إتمام الشيء الذى بعضه متعلق ببعض، فلا يقال أكمل لما كان بعضه قبل بعض، فإذا وجد جميعه قيل قد **أكمل وتَمَّ**. هذا هو حقيقة هذه الكلمة، فلما كان الإيمان قد تقدم بمكة وأنزل الله تعالى الفرائض والدين شيئاً بعد شيء، وكان الإكمال من الدين دل أن بعضه متعلق ببعض إلى **أكمله**، فصارت الأعمال متعلقة بالإيمان وهما الدين **المكمل**.

وقال بعض السلف من لم يقل من **المرجئة** إن إبليس مؤمن لأنه قد أقر بالإيمان وقال به انكسر عليه مذهبه. ولعمري إن **إبليس** لعنه الله موحّد له تعالى عارف به، إلا أنه لم يعمل بالتوحيد، ولم يطع من عرفه وأمن به فكفر. فأنما تعلّتهم بقول الله تعالى **فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار** فإنه شرط القول للجنات، أو علق الجنات بالقول،

فإنما ذلك إثبات منه تعالى لتحقيب القول وأنه قول إيمان ويقين. وأنهم غير متموذين بالقول ولا متخذوه جنة كالمنافقين، إذ المنافقون قد قالوا كقولهم إلا أنه أخير عن سرانهم بصدده. فقال "هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فأراد سبحانه بأن قول هؤلاء قول المؤمنين، وأن قولهم إيمان من أعمالهم لأنهم منفردون بالقول دون العمل. وفيه أيضا دليل أن القول الحق من الإيمان، وأنه يستحق عليه ثوابا لأنه من أعمال البر بمنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلما أن يكون فيه دليل أن القول هو الإيمان كله، وأن الإيمان يكون قولاً لا يحتاج إلى عمل، فهذا باطل بالأدلة التي قدمنا ذكرها من الآي التي شرط الله تعالى فيها الأعمال، ومن قوله في الكفار فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم. وأيضا فإن في نفس هذه الآية بطلان دعوى المرجئة، لأن الله تعالى لم يقل فلم يثبتهم الله إلا بما قالوا جنات، وإنما قال عز وجل فأتاهم الله بما قالوا جنات، فأخبر أنه أجرهم على قولهم بالحق، كما قال فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، ثم أحكم ذلك وقيده بقوله تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة". ولكن هؤلاء كما قال الله تعالى فأتاهم الله الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وكما قال رسول الله صلى عليه وسلم: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه من القرآن فهم الذين عنى الله تعالى فاحذروهم.. وذلك أن الله تعالى قرن الأعمال بالإيمان في كل المواضع فلم تقف المرجئة مع شيء من هذا البيان والإحكام، فلما أجمل القول في موضع واحد لِمَا ذكرناه من السبب تعلقوا به ووقفوا معه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صنفاً لا نصيب لهما في الإسلام، وفي لفظ آخر لا ينالهم شفاعتي القدرية والمرجئة... وفي الحديث الغريب طائفتان لا يدخلون الجنة - من قال إن الإيمان كلام. ورواه حذيفة فقال إنى لأعلم أهل دينين في النار، قوم شرار بلا علم، وقوم في آخر الزمان يقولون كانوا ألوفاً ضللاً، نسال الله أن لا يصرفنا عن فهم آياته ولا يبلونا بالكبر، وأن يرينا سبيل الرشده ويوفقنا لاتخاذ سبيلا، وأن يرينا سبيل الغنى ويعصمنا من اتخاذه سبيلاً. كما أخبر بذلك عمّن بلاء به فقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشده لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغنى يتخذوه سبيلاً الآية.

## ذكر الاستثناء في الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف في ذلك

فأما الاستثناء في الإيمان فإنه سنة ماضية وفعل الإئمة الراضية على معنى الخوف والتقصير وكراهية التزكية للنفس، لا على وجه الارتياب في اليقين، ولا بمعنى الشك في التصديق، إذ الإيمان مقامات والمؤمنون فيه درجات، ولذلك قال الله تعالى لقوم موصوفين بأعيانهم أولئك هم المؤمنون حقا، فهذا وصفهم بالكمال ومدحهم بخصال الأعمال، ففي دليل خطابه أن ثم مؤمنين غير حق. كيف وقد قال وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونه في الحق بعد ما تبين. وقال سبحانه وتعالى في وصف آخرين يا أيها الذين آمنوا آمنوا برسوله تقولون ما لا تفعلون. وقال في نعت الصادقين إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون. وقال في مثل وصفهم ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة الآية، فذكر عشرين وصفا إلى قوله أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون، منها الإيثار بالمال على حبه، والوفاء بالمهد، والصبر في الأمراض والجوع والشدائد، فبعد ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى. وقال في وصف المحبوبين من الموقنين إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. وقال في نعت عموم المؤمنين وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إن يسألكموها فيحفظكم تهلوا ويخرج أضعافكم. فشتان بين من وصف بالمجاهدة والصدق وبين من نعت بالخلف وعرض للتمقت، وبين من وصف بالحق وبين من يجادل في الحق، وبين من قبل منه المال والنفس وبين من رد عليه المال ولم يسأله لما علم منه من البخل والظن. واسم الإيمان يجمعهم ومعناه يجتمع عليهم، إلا أن مقامات الإيمان ترفع بعضهم على بعض وتفاوت بين بعضهم وبعض. كما قال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات. وكقوله لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى، يعني الجنة على تفاوت الدرجات فيها، فجمع بينهم في الدار كما جمع بينهم في اسم الإيمان، ورفعهم في الدرجات علواً في المقامات، كما قال تعالى هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون.

وقد روينا في خبر: الإيمان عريان، ولباسه التقوى وحليته الورع، وثمرته العلم. ففيه دليل

أَنْ مَنْ لَا تَقْوَى لَهُ فَلَا لِبْسٍ لِإِيمَانِهِ، وَمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ فَلَا زِينَةَ لِإِيمَانِهِ، وَمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ فَلَا ثَمَرَةَ لِإِيمَانِهِ، فَإِنْ اتَّفَقَ فَاسِقٌ ظَالِمٌ جَاهِلٌ كَانَ بِالْمُنَافِقِينَ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ إِيمَانُهُ إِلَى النِّفَاقِ أَقْرَبَ، وَيَقِينُهُ إِلَى الشُّكِّ أَمِيلٌ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ اسْمِ الْإِيمَانِ إِلَّا أَنْ إِيمَانَهُ، عَرِيَانٌ لَا لِبْسَةَ لَهُ، مَعْطَلٌ لَا كَسْبَ لَهُ، كَمَا قَالَ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

**والنفاق مقامات، قيل سبعون باباً. والشرك مثل ذلك فيها طبقات. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أربع من كن فيه، فهو منافق خالص، وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن. من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتتمن خان، وإذا خاصم فجر... وفي بعض هذا الحديث وإذا عاهد غدر، فصارت خمسا، فإن كانت فيه واحدة منهن ففيه شعبة من نفاق حتى يدعها... وفي حديث أبي سعيد الخدري وأبي كبشة الأنماري: القلوب أربعة، قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مُصَفَّحٌ فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كالبقلة يمددها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمددها القيح والصدید، فأى المدتين غلبت عليه حُكِمَ له بها. وفي لفظ آخر أيهما غلبت عليه ذهب به.**

وفي الخبر: الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق... ففي تبويض أخلاق الإيمان، وفي وجود دقائق الشرك وشعب النفاق، ما يوجب الاستثناء في كمال الإيمان، لجواز اجتماع الإيمان والنفاق في القلب، ولوجود شعب النفاق، وعدم بعض شعب الإيمان من القلب. كيف وقد جاء في الخبر: أكثر منافقي أمتي قرأوها... والحديث الآخر: الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا... وقال هذيفة كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت. إنى لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات. وفي حديث هلى كرم الله وجهه أن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نما وزاد حتى يبيض القلب كله. وإن النفاق ليبدو نُكْتَةً سوداء، فإذا انتهكت الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب فيطبَع عليه، فذلك الختم. ثم قال كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. فهذا كله موجب للإستثناء في الإيمان خشية خفايا الشرك ووجود دقائق النفاق، وخوفاً من الدعوى للحقيقة والكمال، لأن من قال إنى مؤمن حقاً فقد زكى نفسه وعصى ربه، لأن الله تعالى نهى عن التزكية للنفس، ولأن المُزكى يمرض نفسه للكذب في قوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم

بمن اتقى، ويقول ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكى من يشاء، ثم قال تعالى انظر كيف يفترون على الله الكذب. وقد قال إبراهيم عليه السلام فى تفسير أحد الوجهين من قوله تعالى ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً، أو مثله، قال شعيب وما يكون لنا أن نعود فيها، يعنى ملة الكفر، إلا أن يشاء الله ربنا، ثم عللاً جميعاً بسعة العلم وسبق المشيئة به، فلم يأمن أن يكونا فى سعة علم الله عز وجل وفى حقى مشيئته، وهذا هو خوف المكر. وحقيقة المكر معنيان، أحدهما أن يظهر شيئاً ويخفى ضده، والثانى أن يكشف ما كان ستره ويفشى ما كان أسرّه بعد الطمانينة والعزة، والأنبياء مع فضلهم ومكانهم يُستثنون فى الكفر خيفة المكر، ولا يُستثنى الضعيف الجاهل فى الإيمان ويفتر بظاهر أمره، بل ينبغى أن يُستثنى فى الإسلام أيضاً وفى جميع أعمال البر، لأن القبول غير العمل، والسابقة غير ما ظهر من المعاملة، ولا ينبغى أن يدع الاستثناء فى شيء من الأحوال.

وقال بعض العلماء فى معنى قوله تعالى وجاءت سكرة الموت بالحق، قال بالسابقة. وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان أبو الدرداء يحلف بالله عز وجل ما أحد آمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه. ويقال من الذنوب ذنوب تؤخر عقوبتها إلى سوء الخاتمة، وهذا من أخوف ماخافه العاملون مع قوله تعالى ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وقيل من الذنوب ذنوب لا عقوبة لها إلا سلب التوحيد فى آخر نفس، نعوذ بالله تعالى من ذلك. وقيل هذا يكون عقوبة الدعوى للولاية والكرامات للافتراء على الله تعالى. وكان سهل رحمه الله تعالى يقول من علامة الأولياء أنهم يُستثنون فى كل شيء، وقال من قال أفعَل كذا ولم يقل إن شاء الله تعالى سئل عن هذا القول يوم القيامة، فإن شاء عذبه، وإن شاء غفر له. وقد نهى الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يقول شيئاً حتى يستثنى، وأمره بالاستثناء إذا نسى فقال تعالى ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله، ثم قال والمكر ربك إذا نسيته، أى الاستثناء، أى فاستثن إذا ذكرت، فتأدب صلى الله عليه وسلم بذلك أحسن الأدب، فكان يستثنى فى الشيء يقع لا محالة، فروى أنه دخل المقابر فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون. وقال سبحانه معلماً لعباده الاستثناء، وراحمهم إليه بمشيئته وهو اصدق القائلين وأعلم العالمين لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنهن. والاستثناء أصل يُرد إليه من عرفه ولم ينكر الاستثناء. والأصل هو أن

يزيد وينقص، فأما زيادته بنص الكتاب من قوله تعالى **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**، ومن قوله تعالى **فزادهم إيماناً**، وما يزيد فهو ينقص، لأن معناه موجود في الكتاب بدليل الخطاب من قوله تعالى **ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**، وقوله **وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً**. وفي قوله تعالى **وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم**، فما يزيد الظالمين إلا خساراً ينقصهم رجحاناً وريحاً، وما يزيدهم إلا كفراً ينقصهم إيماناً، وما يكون عليهم عمى ينقصهم بصيرة، وما يكون لهم رجسا يكون لهم من الطهارة نقصاً من قبل أن يزيد الشر نقصان الخير، كما أن مزيد الخير نقصان الشر، فإذا ثبت أن الإيمان يزيد بالصلح وينقص بالسيئات وجب الاستثناء فيه، لأن الصالحات درجات يعلو فيها المؤمنون بحسن الولايات والمجاهدات. قال الله تعالى في المجمع من الخطاب **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**، وقال **والله ولي المؤمنين**، وقال في المفسر **ولكل درجات مما عملوا**، وقال في مثله **وهو وليهم بما كانوا يعملون**، وقال لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله، إلى قوله **وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**.

وروينا في حديث **واثلة بن الأسقع** الإيمان يزيد وينقص. وروى ذلك عن جماعة من الصحابة ومن لا يحصى من التابعين. وقيل **لأحمد بن حنبل** رضى الله عنهما مامعنى **الاستثناء في الإيمان؟** قال أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قيل نعم. قال فالتصديق بالقول، والاستثناء بالعمل. وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه منه برىء. وقال مرة آمنهم له. وقال **عمر مؤلى** عفرة أقرب الناس إلى النفاق الذى إذا رُكئى بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوف أنه لا يُنجيه حقيقة ما هو فيه. وقال **بشر بن الحارث** سكن القلب إلى قبول المدح أضر عليه من المعاصى. وكان سهل يقول غفلة العالم السكون إلى الشيء، وغفلة الجاهل الافتخار بالشيء. والسكون عندهم من الدعوى، والدعوى من المعاصى. وقال **هذيفة** اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. كانوا إذذاك يخفونه وهم اليوم يُظهرونه. وقيل **للحسن** إن قوماً يقولون لا نفاق اليوم، فقال يا ابن أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتهم في الطرقات. وعنه وعن غيره لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض. وسمع **ابن عمر** رجلاً يطعن على الحجاج، فقال أرأيت لو كان حاضرأ بين يديك، أكنت تتكلم فيه بما تكلمت الآن؟ قال لا. قال كنا نعد هذا نفاقاً على

عهد رسول الله صلى عليه وسلم. وقال رسول الله صلى عليه وسلم: من كان ذا لسانين في الدنيا جعل له لسانان من نار في الآخرة.. وفي خبر آخر: شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه.. وقيل للحسن إن قوما يقولون لا نخاف النفاق، فقال والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلى من تلوع الأرض ذهباً.

وقال الحسن إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج. وقال رجل لعذيفة إنى أخاف أن أكون منافقاً، فقال لو كنت منافقاً ما خفت أن تكون منافقاً. إن المنافق قدأ من النفاق لأن النفاق على ضربين: نفاق ينقل عن الملة وهو الشك في دين الله تعالى والرد لشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونفاق لا ينقل عن الملة ولا يخرج عن الإسلام، ولكنه ينقص الإيمان، ويذهب حقيقته، ويطفى أنواره، ويحرم مزیده، ويحبط الأعمال ويوجب المقت والإعراض، وهو إلباء والمداهنة، والتصنع للخلق والتزين بالحق، وانتلاف الألسنة واختلاف القلوب، وتفاوت القول والعمل، ومخالفة الأمر إلى ما ينهى عنه. واختلاف السر والعلانية، وزيادة الظواهر على السرائر. وهذا المعنى من النفاق الذى خافه السلف وكانوا منه على إشفاق. وكان سهل يقول المرائى حقا الذى يحسن ظاهره حتى لا تُنكر العامة والعلماء من ظاهره شيئاً وباطنه خراب، وقد كان الحسن وأصحابه يسمون أهل البدع منافقين. وكان ابن سيرين وأصحابه يسمونهم خوارج. وقال ابن أبى مليكة أدركت ثلاثين ومائة، وفي رواية خمسمائة، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه. وقال مرة ما منهم أحد يقول إنأ على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام .

وقد روينا عن على وأبى سعيد قالاً: الإرجاء بدعة. وقال أبو أيوب: أنا أكبر من الإرجاء، وأول من أحدث الإرجاء رجل من أهل المدينة ذكره. وقال قتادة لعن الله ديننا أنا أكبر منه وإنما ظهر الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث، يعنى فى ولاية الحجاج . وقال سفیان الثوري من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة . قيل فما يقول ؟ قال قولوا أمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم الآية، فقيل للحسن مؤمن أنت ؟ قال إن شاء الله . فقيل تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله تعالى كذبت يا حسن، فيحق على الكلمة. وكان يقول ما يؤمننى أن يكون الله عز وجل قد اطلع على فى بعض ما يكره فمقتنى وقال اذهب لا قبلت لك عملاً أبداً،

فأنا أعمل في غير معمل . وكان جماعة من أهل العلم يرون السؤال عن قوله آمؤمن أنت ، بدعة، ويقول بعضهم إذا قيل لك مؤمن أنت، فقل آمنت بالله وكتبه ورسله. وقال إبراهيم إذا قيل لك مؤمن أنت، فقل ما أشك في الإيمان، وسؤالك إياي بدعة. وروينا عن الثوري عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم النخعي: إذا سُئِلَ مؤمن أنت، فقل لا إله إلا الله . وعن منصور عن إبراهيم قال سئل علقمة مؤمن أنت ،فقال أرجو ذلك إن شاء الله . وكان الثوري يقول نحن مؤمنون بالله وملائكته ورسله، وما ندرى مانحن عند الله. وقال بعض العلماء أنا مؤمن بالإيمان غير شك فيه، ولا أدرى أنا ممن قال الله سبحانه أولئك هم المؤمنون حقا أم لا. وقال بعض العارفين لو عرِضت على الشهادة عند باب الدار، والموت، على التوحيد عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الشهادة. قيل ولم، قال لأنى لا أدرى ما يعرض لقلبي من التغير عن التوحيد من باب الحجرة إلى باب الدار . وقال أبو سليمان الداراني سمعت فلانا، يعنى بعض الأمراء، يتكلم على المنبر بكلام أردت ان أقوم فأنكر عليه، فخشيت أن يأمر بقتلى، فلم يكن بى أن أموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزيين للخلق بانى أمرت بالمعروف على الإمام وقُتلت فى الله عز وجل عند خروج روحى، فكففت عن ذلك. وقال بعض العارفين لو عرفت أحدا على التوحيد خمسين سنة، ثم حالت بينى وبينه سارية، ثم مات، لم أحكم أنه مات على التوحيد، لعلمى بسرعة تقليب القلوب. وقال منصور بن زازان كان الرجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إذا سئل قال أنا مؤمن إن شاء الله. وقال أبو وائل قال رجل لابن مسعود لقيت ركبا فقالوا نحن المؤمنون، فقال ألا قالوا نحن من أهل الجنة. وقال بعض أصحاب عبد الله لرجل: مؤمن أنت؟ قال نعم . فذكر ذلك لابن مسعود، فقال سلوه أم من أهل الجنة أنت؟ فقال أرجو. فقال ألا رجيت الأولى كما رجيت الثانية. ونقش ابن بعض التابعين على خاتمه فلان لا يشرك بالله تعالى شيئا، فقال أبوه هذا أقبح من الشرك . وقال بعض السلف أقرب الناس من النفاق من يرى انه أبعدهم منه عند نفسه . وفى الخبر أن رسول الله صلى عليه وسلم كان جالسا فى جماعة من أصحابه، فذكروا رجلا ومدحوه، وأحسنوا الثناء عليه، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليه الرجل يقطر وجهه ماء من أثر الوضوء، قد علّق نعليه بيديه، وبين عينيه أثر السجود، فقالوا يارسول الله هذا هو الرجل الذى وصفنا لك آنفا، فلما نظر إليه رسول الله صلى عليه وسلم قال : أرى على وجهه سفعة من الشيطان- يعنى ظلمة. فجاء الرجل حتى سلّم وجلس مع القوم،

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : نشدتك الله ا هل حدثت نفسك حين اشرفت على القوم انه ليس فيهم خير منك؟ فقال اللهم نعم. وفي الحديث: من قال إني مؤمن فهو كافر، ومن قال إني عالم فهو جاهل، ومن قال إني في الجنة فهو في النار... وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله تعالى دعاءً قال، قل فيه: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم... واستغفرك لما لا أعلم. وجاء في الخبر الشريك في أمتى أخفى من ديب النمل على الصفا... وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم. فقيل له أتخاف يا رسول الله؟ قال وما يؤمننى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقبها كيف يشاء... وقال الله تعالى ويذا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، قيل عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنة، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات. وقيل كانت هذه الآية مكالمة العابدين. وقيل فى معنى قوله تعالى وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، قيل صدقاً لمن مات على الإيمان، عدلاً لمن مات على الشريك، كقوله تعالى إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، وقال سبحانه ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وقال ينالهم نصيبهم من الكتاب وإن لم يفهم نصيبهم غير منقوص، وقال والله عاقبة الأمور، وقال لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله، فالاستثناء فى الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء فى كل شيء من علامة الأولياء، والإشفاق من الشريك والتفاق هو من مزيد الإيمان، لتلا يسكن العبد إلى شيء، ولا يزكى نفسه بشيء. وقال سترى السقطى لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الأطيار، فخاطبه كل طير منها بلغة، فقال السلام عليك ياولى الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً فى أيديها.

## الفصل الخامس والثلاثون

### فى فضائل أهل السنة والطريقة وطرق السلف من الأئمة

السنة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم للطريق الأقوم. يقال طريق وطريقة، وسُنن وسنة، وحجة ومحجة، فمن فضائل السنة وطريق أهلها التقلل من الدنيا فى كل شيء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شيء، والتواضع لله بكل شيء. وفى الخبر فضل العبادة التواضع. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع لا يوجدن إلا بعجب: التواضع وهو أول العبادة، والصمت، وذكر الله تعالى، وقلة الشيء... وأعلم أن التواضع يظهر بمعان خمسة: